المدرسة الظاهرية ومكتبتها

الدكتور محمد زهير البابا

في وسط مدينة دمشق، وبالقرب من باب البريد، يرى الزائر في الوقت الحاضر بناءين جميلين متشابهين، يفصل بينهما طريق ضيّق. وهما المدرسة العادلية وفيها قبر الملك العادل أبي بكر بن أيوب، المتوفى سنة٦١٥هـ، ويقابلها المدرسة الظاهرية، وفيها قبر الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتوح بيبرس التركي البندقداري، المتوفى سنة ٦٧٦هـ ، وقبر ابنه الملك السعيد محمد بركة خان المتوفى سنة ٦٧٨ هـ.

يُعّد ابن شداد ، واسمه عز الدين محمد بن علي، أشهر من وضع كتاباً تحدّث فيه عن حياة الملك الظاهر وفتوحاته وأعماله. وهو مؤرخ وجغرافي سوري، ولد بمدينة حلب سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٧ م. وحينما بدأ غزو المغول لمدينته سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م لجأ مع أهله إلى مصر. ثم انخرط في خدمة الملك الظاهر، فحصل على مكانة مرموقة، نظراً لفضله ومزاياه. لقد بيّن ابن شداد، في كتابه تاريخ الملك الظاهر، الطرق التي سار عليها في توطيد دعائم حكمه، واكتساب محبة رعيته واحترامها.

قام الظاهر بطرد الصليبيين من الساحل السوري، وأحيا الخلافة العباسية بالقاهرة، بعد سقوطها على يد هولاكو في بغداد، وحرّم الخمور وتدخين الحشيش، وعاقب بشدة كل من كان يخالف أحكام الشريعة

هدية مجمع اللغة العربية بالمجان مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الإسلامية . أمّ مكة حاجاً، وأمر بكسوة الكعبة الشريفة. أنشأ عدداً كبيراً من المدارس والمساجد والبيمارستانات والحمامات العامة. كما أمر بترميم القلاع التي خرّبها الأعداء في مصر والشام. وتراجع عن فرض الضرائب التي كان ضربها، حينما شعر بتذمر الشعب.

كان الملك الظاهر، كما يقول ابن شداد، جبّاراً في الأسفار والحروب، شديد الوطأة على الأعداء من التتار والفرنج وغيرهم. وفي سنة ٦٧٦ هـ دخل دمشق، ونزل بالجوسق، المعروف بالقصر الأبلق، بجوار الميدان الأخضر. ولما سمع بوصول أبْغا(*) بن هولاكو إلى الموصل، قاصداً بلاد الشام، استعدّ للقائه. وفي أثناء هذا العزم وصل إلى أبوابه رجل من التركمان، أخبره أن أبغا أوغل في الهرب. فحمله شدة السرور والفرح على أن ازداد على نفسه (بالطعام واللذات). وكان قد شرب قمزاً (وهو شراب مخمر يصنع من لبن الفرس أو البقر). ولما أحسّ بوعكة، واشتكى حرارةً باطنة، أمر باحضار الأطباء. وقد اختلفت طرق معالجتهم، مما سبب له الإفراط في الإسهال، مع نزف الدم. وهذا ما أدّى لوفاته يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر محرم سنة٦٧٦ هـ .

كان الملك الظاهر قد أوصى أن يدفن في جهة عيّنها لأمرائه، قريبة من قرية داريا، على الطريق العام، بالقرب من دمشق، وأن يُبنى على قبره بناءٌ يبقى أثره على مر الزمان. ولما توفي رأى ابنه الملك السعيد أن يُدفن داخل أسوار دمشق، أسوة بغيره من الملوك المدفونين فيها. فكتب إلى الأمير عز الدين أيدمر، نائب سلطنة دمشق، يأمره أن يختار مكاناً إلى جوار الجامع الأموي.

لقد اتفق الأمراء عند موت الملك الظاهر، على إخفاء ذلك. فحُمل إلى

(*) جاء في كتاب العالم الاسلامي في العصر المغولي أن ابن هولاكو يدعى (أباقا) وهذا الكتاب من تأليف برتولد شبولر وترجمة خالد أسعد عيسى.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الألوكة

القلعة بدمشق ليلاً حيث تولّى تغسيله وتحنيطه وتكفينه المهتار شجاع الدين عنبر، والفقيه كمال الدين المؤذن الاسكندراني، والمعروف باسم المبنجي. ثم جُعل في تابوت، وأُغلق عليه في بيت من بيوت البحرية بالقلعة.

كان بيليك بدر الدين الخازندار نائباً للسلطان بدمشق. فخرج إلى مصر بمحفّةٍ ليوهم الناس أن السلطان فيها مريض. وهناك عمل على تولّي الملك السعيد الحكم، وكان عمره ثمانية عشر عاماً.

ويروي النعيمي، في كتابه الدارس في تاريخ المدارس، نقلاً عن ابن كثير، أنه في يوم الأربعاء، الثالث عشر من شهر صفر ٦٧٧ هـ ، شُرع في بناء الدار التي تُعرف بدار العقيقي، تجاه العادلية، لتجعل مدرسة وتربة للملك الظاهر. وفي ليلة الجمعة، الخامس من شهر رجب، حُمل نعش الملك الظاهر من القلعة إلى تربته. وفي شهر ذي القعدة من عام ٦٧٨ هـ توفي الملك السعيد فجأة، وهو في قلعة الكرك، بعد أن خلع نفسه، فنُقل إلى جوار والده في تربته بالظاهرية .

إن تحول قصر العقيقي إلى تربة ومصلّى ومدرسة قد أدى لتغيير شكل البناء الأصلي. إذ ارتفع حوله جداران من الحجر المنحوت، أحدهما غربي، وفيه الباب الرئيسي المقابل للمدرسة العادلية، وعلى يمينه نافذتان على الطريق. والآخر جنوبي يطل على الطريق المؤدي لضريح السلطان صلاح الدين. أما الحمام الموجود إلى يسار المدرسة الظاهرية، وكذلك الإيوان الشمالي، الموجود داخلها، فهما البقية الباقية من دار العقيقي.

لقد ذكر المرحوم الأستاذ محمد كرد علي، الرئيس الأول للمجمع العلمي العربي بدمشق، في مقال له نشر في العدد الأول من مجلة المجمع، والصادر في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢١م، عن المدرستين العادلية والظاهرية فقال: «وأجملُ مارُسم على الرتاج (فوق باب الظاهرية) جملةٌ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نقشت في الزاوية الشمالية (عمل إبراهيم بن غانم المهندس رحمه الله) كما ذكر ابن شداد، في كتابه تاريخ الملك الظاهر، إن إبراهيم بن غانم هو الذي قام بترميم القصر الأبلق الواقع بجوار الميدان الأخضر. وإنه سُمّي بالأبلق لأن جدرانه بنيت من حجر أسود جلب من حوران، وحجر أصفر جلب من حلب. وظل هذا القصر قائماً حتى هدمه تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ /١٤٠١م.

وأضاف ابن شداد إلى قوله السابق: «إن المهندس إبراهيم بن غانم عُني ببناء قبة التربة، فاستعان بالعمال الذين قاموا بتزيين الجامع الأموي وترميمه. فطلوا جدران المدفن الداخلية برسوم من أحجار الفسيفساء، كما زيّنوا أطراف المحراب والنوافذ بقطع من الرخام الملون، وأحاطو النوافذ بإطار من الأحجار الصفراء، المنقوشة برسوم هندسية دقيقة ومتقنة».

وتقول السيدة أسماء الحمصي، المديرة سابقاً للمكتبة الظاهرية: « لقد استوحى المهندس إبراهيم بن غانم تقاليد الفن الأيوبي، والتي كانت ماثلة في بناء المدرسة العادلية. ولعلّه أراد أن يجعل هذين البناءين المتقابلين منسجمين، فألّف منهما وحدة عمرانية رائعة»

كان بناء المدرسة الظاهرية يشمل أربعة أمكنة رئيسة وهي:

١ ـ **تربة الملك الظاهر وابنه الملك السعيد :** وهي قاعة مربعة الشكل، يقع بابها على يمين الداخل من الباب الكبير الذي تعلوه المقرنصات. ويعلو التربة قبة تستند على دعامتين، بارتفاع ثلاثين متراً. وفي منتصف الجدار القبلي منها يوجد محراب مزخرف، وعلى كل طرف منه نافذة يعلوها قوس مزخرف أيضاً.

٢ ـ **الإيوان القبلي :** وهو يقع بمحاذاة التربة. وهو مصلّى في صدره محراب يماثل بشكله محراب التربة. وكان مخصصاً لتدريس طلاب العلم على المذهب الحنفي، ويستعمل حالياً مستودعاً لكتب المكتبة الظاهرية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٣ ـ الإيوان الشرقي : وهو الركن الذي كان يجري فيه التدريس على المذهب الشافعي. وقد دثر ولم يبق من قوسه سوى ثلاثة أحجار تدل عليه، وعلى شكله المشابه للإيوان القبلي.

٤ ـ دار الحديث : وكانت تقع في الزاوية الكائنة بين الإيوانين، ولم يبق من تلك الدار سوى الباب.

وتقول السيدة الحمصي: « ويستفاد من تراجم بعض من درَّس أو دَرَس في الظاهرية، ولا سيما في دار الحديث، إنه كان هناك غرف لهم يعيشون فيها. وكان ذلك شرطاً على كل من يُعين شيخاً لدار الحديث على الأقل، ولكن في أية جهة منها ؟ وهل هي أرضية أم علوية؟ فكلها أمور لم تزل مجهولة».

الدراسة والمدرِّسون في المدرسة الظاهرية:

كان ملوك وأمراء المماليك بأشد الحاجة إلى المال، وذلك لإنفاقه على تجهيز الجيوش، واسترضاء الجنود وأعيان البلاد، وإقامة المآدب في المناسبات والأعياد، وإقامة المنشآت الدينية والعلمية والصحية، إظهاراً لتدينهم ومحبتهم للعلم. لذلك أثقلوا كاهل الشعب، في القطرين المصري والسوري، بفرضهم الضرائب، ومصادرتهم للأراضي والأموال والأرزاق. وقد ظهرت أهمية العلماء في الدعم السياسي والنفسي للنظام المملوكي في جمع الضرائب وتهدئة الأحوال. فقامت الدولة بتعيين موظفين من العلماء المشهورين، وجعلتهم قضاة أوقضاة قضاة، أو محتسبين أو مدرسين، أو وعاظاً في المدارس و المساجد. وقد حذا المماليك حذو نور الدين والملوك الأيوبيين، برعايتهم لمدارس الفقه على مذاهب السنّة الأربعة، وذلك بتعيينهم أربعة قضاة للمحاكم، وأربعة أئمة للمساجد، وأربعة مدرسين للمدارس.

كان قضاة القضاة هم المسؤولين، بشكل رئيسي، عن تنظيم مدارس الفقه، من وجهة نظر الدولة. وكان مقرهم ومسكنهم غالباً في المدرسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العادلية. وكان القضاةُ مديرين للمدارس ولأوقافها أحياناً. وكان لمعظم القضاة، وكبار الموظفين الدينيين، رواتب شهرية من الأوقاف، كما كانوا يتقاضون أجوراً من المتقاضين. أما أصحاب الوظائف التعليمية، وطلاب العلم، فكانت رواتبهم ضئيلة نسبياً، فاعتمدوا غالباً على الإحسان، والتماس الهبات.

ولكن واردات المدرسة الظاهرية كانت وافرة. ويكفي إلقاء نظرة على أسماء الأملاك التي أوقفت عليها، والتي نقشت على حجرٍ فوق بابها، للتأكد من ذلك. وكانت تلك الواردات كافية لتمد المدرسة والقائمين عليها ومن يتعلم فيها بالخير العميم.

روى ابن كثير، في كتابه البداية والنهاية في التاريخ: إنه في يوم الأربعاء، الثالث عشر من شهر صفر عام ٦٧٧هـ ، بدأ التدريس في الظاهرية، بحضور نائب السلطنة أيدمر الظاهري. وكان درساً حافلاً حضره القضاة، ألقاه مدرّس الشافعية، الشيخ رشيد الدين الفارقي، ومدرس الحنفية الشيخ صدر الدين سليمان، المعروف بابن أبي العز الأذْرعي، ولم يكن بناء المدرسة قد اكتمل، فأمر بإكمالها الملك المنصور قلاوون.

إن أكثر العلماء والفقهاء ، الذي درّسوا في المدرسة الظاهرية، قد وردت أسماؤهم، مع لمحة عن حياتهم ومركزهم وآثارهم، في عدة مؤلفات منها:

كتاب الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي* - شذرات الذهب في

---

* كان النُعيمي أحد نواب القضاة في دمشق خلال القرن التاسع الهجري. ألف أوسع كتاب عن دور العلم التي كانت منتشرة في دمشق مستفيداً من مؤلفات من سبقه. وقد أحصيت تلك المدارس فبلغ عددها (١٣٢) داراً : دور للقرآن والحديث وعددها ١٦. المدارس الشافعية وعددها ٦٣. المدارس الحنفية وعددها ٥٣.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي - البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير القرشي - حسن المحاضرة للسيوطي وغيرها ..

لم تذكر كتب التراجم أسماء من قام بالتدريس في المدرسة الظاهرية في القرن الثالث عشر للهجرة. وهذا يدل على تضاؤل شأنها ومكانتها العلمية والدينية. ويمكن أن يعزى ذلك لعدة أسباب منها:

١ً - تدنّي موارد أوقاف المدرسة، بسبب سوء تصرف بعض من تولى القيام عليها وإدارة أوقافها.

٢ً - تنافس المدرسين على احتلال مناصب القضاء والإفتاء، وسعيهم لتنصيب أولادهم وأقاربهم من بعدهم.

٣ً - ظهور مدارس رسمية أو خاصة، تدرّس فيها العلوم العصرية والدينية.

تحويل المدرسة الظاهرية لمكتبة عامة :

كانت أكثر المدارس والمساجد والزوايا والبيمارستانات في دمشق تحوي في خزائنها عدداً كبيراً من المخطوطات والمطبوعات، المهداة إليها من أهل البر والإحسان. كما كان بعض علماء دمشق ووجهائها يحفظون في منازلهم نسخاً نادرة من أمهات كتب التراث العلمي والديني. ولما ازداد الطلب على شراء تلك الذخائر، من البلاد وخارجها، وازداد عدد سماسرة الكتب ولصوصها، تقدم رئيس الجمعية الخيرية في دمشق ، وهو الشيخ علاء الدين بن العلامة محمد عابدين، بعريضة إلى الوالي العثماني مدحت باشا، يقول فيها مع زملائه : إن دمشق تملك الكثير من خزائن الكتب، الموقوفة على روّاد العلم، والتي فرغت من كنوزها أو كادت، بنتيجة الاختلاس والسرقة. وإنهم يخشون أن يضيع هذا النزر اليسير المتبقي.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي عام ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٧م استطاع الوالي مدحت باشا الحصول على موافقة الباب العالي بجمع الكتب من بعض المكتبات الوقفية بدمشق، وأن يكون مقرّها في التربة الظاهرية.

ولما صدر الأمر بعزل مدحت باشا وتعيين حمدي باشا، قام الوالي الجديد بتحويل الجمعية الخيرية بدمشق إلى مجلس معارف، يترأسه العلامة محمود حمزة، وكان من أعضائه: علاء الدين عابدين، والشيخ سليم العطار، والسيد محمد المنيني، كما أصدر في ذلك العام قراراً بتأسيس دارٍ للكتب في المدرسة الظاهرية، لكي يستطيع رواد العلم المطالعة فيها. وأن يشرف على تلك الدار بعض علماء دمشق، باسم جمعية المكتبة العمومية.

لقد استطاع المرحوم الشيخ طاهر الجزائري، بمعونة زملائه أعضاء هذه الجمعية، القيام بجمع عدد كبير من المخطوطات والكتب، الموقوفة في بعض مكتبات دمشق، وأن يودعوها المكتبة العمومية، تحت قبة الظاهرية. وقد بلغ عددها (٣٣٥٣) مرجعاً، ثم قام بعض أعضاء الجمعية بتسجيلها، بموجب محضر وقع عليه المحافظان، اللذان جرى تعيينهما لاستلام الكتب، والإشراف على المكتبة، وذلك في شهر شعبان عام ١٢٩٨ هـ / ١٨٧٩م.

المكتبة الظاهرية بين الأوقاف ومديرية المعارف :

بعد أن استلم المحافظان عملهما في المكتبة العمومية، رُبطت هذه المكتبةبدائرة الأوقاف، التي أسند إليها الاشراف على عمل الجمعية الخيرية، والتي تشرف بدورها على المكتبة.

وفي شهر آذار (مارس) عام ١٣٣٧ هـ / ١٩١٩م قامت الحكومة العربية السورية بإلحاق المكتبة العمومية بديوان المعارف، وحوّلت اسمها إلى دار الكتب العربية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد اتسع عمل هذا الديوان، وأصبح يشرف على التأليف والترجمة والنشر، وإيجاد المصطلحات العلمية،وحفظ التراث والآثار، والإشراف على دور الكتب. لذلك أصدر حاكم سورية العسكري، في شهر حزيران (يونيو) ١٩١٩م قراراً بتسمية ديوان المعارف بالمجمع العلمي العربي.

المكتبة الظاهرية في ظل المجمع :

بقيت دار الكتب العربية مقتصرة على قبة الظاهرية، والتي تحولت لمستودع للكتب وقاعة للمطالعة. وأصبحت مرتبطة مع المجمع العلمي العربي بالجامعة السورية ، التي تم إنشاؤها عام ١٩١٩ ، في أمورها المالية دون الإدارية.

ولما كثر عدد المطالعين في المكتبة، وازداد عدد خزائن الكتب، اضطرت إدارة المجمع إلى جعل القاعة الكبرى، القائمة في إيوان العادلية الشمالي، قاعة للمطالعة. كما أصبحت خزائنُ الكتب موزعةً بين قبة الظاهرية والمدرسة العادلية. لذلك سعى رئيس وأعضاء المجمع لفصل المجمع عن الجامعة السورية، كما سعوا لإخلاء دار الكتب العربية من المدرسة الابتدائية الرسمية، التي أنشئت أواخر العصر العثماني (عام ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٦ م) على النمط الحديث.

لقد تحقق انفصال المجمع عن الجامعة عام ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٦م، وأجليت عنه المدرسة الابتدائية بعد ذلك بعام. وبهذه الصورة تحولت مدرسة الظاهر بيبرس، التي أنشأها ابنه الملك السعيد، إلى أول مكتبة رسمية عامة في مدينة دمشق.

وحينما تم للمجمع استلام كامل بناءي العادلية والظاهرية، سعى لتحقيق الأمور الآتية:

١ً - إجراء الإصلاح والترميم فيهما، بحيث يعود لهما الشكل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الهندسي القديم. وتخصيص ساحة المدرسة العادلية وإيوانيها الشرقي والجنوبي لحفظ الآثار، التي بدأت ترد إلى المجمع من المدن والمحافظات السورية.

٢ً ـ بذل الجهد لتزويد المكتبة بالمخطوطات والمطبوعات، الباقية في حوزة بعض علماء ووجهاء مدينة دمشق، أو السعي لاستنساخ بعض المخطوطات الموجودة لديهم.

٣ً ـ مراسلة بعض المؤسسات الثقافية، من عربية وأجنبية، والطلب منها تزويد المكتبة بمالديها من مخطوطات أو مطبوعات، عن طريق الإهداء أو الشراء.

٤ً ـ ارتأى مجلس المجمع إرسال معتمد من قبله، ليجوب بعض الأقطار العربية، بحثاً عما يفيد المكتبة من كتب ومخطوطات لشرائها أو استهدائها أو استنساخها. ووقع الاختيار على السيد حسني الكسم، مدير المكتبة، فذهب إلى مصر عام ١٩٢٤ م، حيث اطلع على الطريقة الحديثة في تنظيم المكتبات. كما استطاع الحصول على ألف وستمئة مجلد، في مختلف العلوم والآداب، وكانت جميعها هدية من بعض المؤلفين والناشرين. ويعود الفضل للعلامة أحمد تيمور باهداء عدد لا يستهان به من المخطوطات العربية المحفوظة لديه أو المنسوخة من مكتبته.

وبهذه الصورة ارتفع عدد المخطوطات والمطبوعات، الموجودة في المكتبة الظاهرية عام ١٩٢٨م إلى مايزيد على أربعة آلاف مخطوط وعشرة آلاف كتاب مطبوع تقريباً.

النظام الداخلي لدار الكتب العربية :

قام مجلس المجمع العلمي العربي، منذ ما استقل عن ديوان المعارف ١٩١٩م ، بوضع نظام حدد فيه أعمال الموظفين وعددهم في المكتبة، وساعات الدوام فيها. كما بين الطريقة الواجب اتباعها عند استعارة الكتاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للمطالعة داخل الدار أو خارجها. وكلف الأساتذة: سعيد الكرمي وعيسى اسكندر معلوف وحسني الكسم، وضعَ فهارس للكتب، والاشراف على ترقيمها وترتيبها في خزائن المكتبة. وقد بقي القائمون على أمر المكتبة يسيرون على ذلك النظام حتى أوائل شهر أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٣٥م.

وفي تلك الحقبة عاد الأستاذ يوسف العش من باريس، بعد أن حصل على شهادة المكتبات من مدرسة الشروط أو الوثائق Ecole des chartes ، والتي أوفد إليها فاستلم إدارة المكتبة، وسعى لتعديل نظامها الداخلي. وكان من جملة اقتراحاته التي وافق عليها مجلس المجمع:

١ ـ تخصيص قاعة عامة للمطالعة، يرتادها من يريد القراءة والاطلاع.

٢ ـ تخصيص قاعة للباحثين والمؤلفين ،

ووضع فهارس حديثة في كل من القاعتين، بحيث تتفق مع غاية المطالع ومستوى علمه.

٣ ـ تنظيم فهرس جديد لكتب المكتبة، بطريقة تلائم العلوم العربية الاسلامية، ذات الصبغة الخاصة في التصنيف والتطور والهدف.

وفي عام ١٩٦٧ أعدّ مجمع اللغة العربية بدمشق مشروعاً جديداً للنظام الداخلي في المكتبة الظاهرية، يتلاءم مع الزيادة المطردة لعدد المطالعين، واختلاف أهدافهم، وكثرة المراجع العلمية والأدبية والدوريات التي تراكمت في الخزائن وفوق الرفوف. يضاف إلى ذلك ضرورة زيادة عدد العاملين من موظفين ومستخدمين. وقد تمت الموافقة عليه من قبل السيد وزير التعليم العالي، بموجب القرار رقم (١٥) ، تاريخ ١٥ / ٣ / ١٩٦٧، من قبل وزير التعليم العالي، الأستاذ الدكتور عبد الله واثق شهيد ، العضو العامل في مجمع اللغة العربية بدمشق، والمقرر الحالي لهذه الجلسة العلمية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إنشاء مكتبة الأسد الوطنية :

ازداد عدد المدارس والمعاهد والكليات الجامعية، في القطر العربي السوري، منذ بداية عهد الاستقلال لذلك ظهرت حاجةٌ ماسة لتشييد مكتبة وطنية حديثة، تتوافر فيها الشروط الآتية:

١ ـ أن تتمتع بكامل المواصفات الفنية.

٢ ـ أن تكون مقراً للتراث الثقافي الوطني والقومي، إلى جانب المراجع العلمية والأدبية الحديثة.

٣ ـ أن تستوعب العدد المتزايد من المطالعين والباحثين.

فاتجه عندئذ تفكير المسؤولين في الدولة إلى اختيار مكان متسع ومناسب لإشادة تلك المكتبة. وبتاريخ ٢٠ / ٤ / ١٩٧٢ أصدر رئيس مجلس الوزراء قراراً يقضي بتأليف لجنة تضع دراسة شاملة، وتشرف على تنفيذ بناء المكتبة الوطنية، فوق قطعة أرض تبلغ مساحتها ستة آلاف متر مربع، تطل على ساحة الأمويين بدمشق. وفي أول الشهر السابع من عام ١٩٧٨ تم وضع حجر الأساس للبناء، الذي استغرق العمل فيه خمس سنوات، وبلغت كلفته الاجمالية نحو مائة مليون ليرة سورية.

لقد أطلق على تلك المنشأة الحضارية اسم مكتبة الأسد الوطنية، اعترافاً بفضل السيد الفريق حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية الذي أمر بتشييدها. وقد جرى الاحتفال بافتتاحها بتاريخ ١٦ / ١١ / ١٩٨٤، الموافق للذكرى الرابعة عشرة لمرور الحركة التصحيحية، والتي أشرف عليها ورعاها السيد الرئيس .

تبلغ المساحة الإجمالية لبناء المكتبة (٢٢) ألف م^{٢} ، موزعة على قبوين وستة طوابق. خصص الطابق الرابع منها لحفظ المخطوطات والدوريات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القديمة، ضمن الشروط اللازمة من الحرارة والرطوبة. وخصص الطابقان الخامس والسادس لحفظ المطبوعات، ضمن الشروط المناسبة أيضاً، وبمساحة تبلغ ستة آلاف متر مربع، تستوعب نحو مليوني مجلد.

نقلُ مخطوطات الظاهرية إلى مكتبة الأسد الوطنية

لقد صدر المرسوم التشريعي رقم (١٧)، الصادر بتاريخ ٢٦ / ٧ / ١٩٨٣، بإحداث مكتبة الأسد، وجاء في المادة الثالثة منه،ضرورة اقتناء وحفظ المخطوطات والوثائق ذات القيمة الثقافية والتاريخية أو القومية، لذلك أصدر مجلس الوزراء، في عام ١٩٨٦ قراره بضم المخطوطات المحفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق، ومكتبة الأشرفية بحلب. علماً بأن دائرة الأوقاف بحلب كانت قد جمعت في مكتبة الأشرفية المخطوطات التي كانت محفوظة في المدرسة الأحمدية والعثمانية والجامع الأموي والقرناصية والخسروفية وغيرها.

مما لاشك فيه أن ذلك الإجراء كان ضرورياً، لأن جميع المكتبات القديمة لم تكن فيها الوسائل الحديثة المستعملة في الوقت الحاضر لصيانة المخطوطات أو لمعالجة ما يصاب منها بالآفات الحشرية أو العفنية. بينما يوجد حالياً في مكتبة الأسد الوطنية قسم فني، فيه أجهزة يدوية وآلية لتعقيم المخطوطات وترميمها، ويعمل فيه جهاز مدرّب بصورة جيدة على هذا العمل . وبهذه الصورة يتم أنقاذ كثير من المخطوطات العربية القيمة، والتي كان من المتعذر القيام بتحقيقها، بسبب وجود تلف في بعض أقسامها.

فهارس مخطوطات المكتبة الظاهرية

المنقولة إلى مكتبة الأسد الوطنية

كانت المكتبة الظاهرية تذخر بعدد كبير من المخطوطات، يربو على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اثني عشر ألف مخطوط. وهي تشتمل على قسم كبير من تراثنا الديني والعلمي والتاريخي والفني. وقد قام بتصنيفها وترتيبها، بحسب مواضعها، مجموعة من الباحثين ضمن ستة عشر فهرساً . أصدرها مجمع اللغة العربية بدمشق منذ بداية عام ١٩٤٧ ـ حتى نهاية عام ١٩٨٠. وفيما يلي أسماء تلك الفهارس، وإلى جانبها أسماء من قام بتصنيفها، والعام الذي صدرت فيه:

١ـ فهرس كتب التاريخ	د. يوسف العش	١٩٤٧
٢ ـ فهرس كتب علوم القرآن	د. عزة حسن	١٩٦٢
٣ ـ فهرس كتب الفقه الشافعي	أ. عبد الغني الدقر	١٩٦٣
٤ ـ فهرس كتب دواوين الشعر	د. عزة حسن	١٩٦٤
٥ ـ فهرس كتب الطب والصيدلة	د. سامي حمارنة	١٩٦٩
٦ ـ فهرس كتب الهيئة وملحقاته	أ. إبراهيم الخوري	١٩٦٩
٧ ـ فهرس كتب المنتخب من علم الحديث	أ. محمد ناصر الدين الألباني	١٩٧٠
٨ـ فهرس كتب الفلسفة والمنطق والآداب	أ. عبد الحميد حسن	١٩٧٠
٩ ـ فهرس كتب الجغرافيا وملحقاتها	أ. إبراهيم الخوري	١٩٧٠
١٠ ـ فهرس كتب الرياضيات	أ. محمد صلاح عايدي	١٩٧٣
١١ ـ فهرس كتب التاريخ وملحقاته	أ. خالد الريان	١٩٧٣
١٢ ـ فهرس كتب علم النحو	أ. أسماء الحمصي	١٩٧٣
١٣ ـ فهرس كتب علم اللغة العربية	أ. أسماء الحمصي	١٩٧٣
١٤ ـ فهرس كتب علم التصوف	أ. محمد رياض المالح	١٩٧٨
١٥ ـ فهرس كتب العلوم والفنون	أ. مصطفى الصباغ	١٩٨٠
١٦ ـ فهرس كتب الأدب	أ. رياض مراد وياسين السواس	١٩٨١

لقد ذكر هذه الفهارس الأستاذ رياض مراد في محاضرته القيمة والتي تكلم فيها البارحة عن مجمع اللغة العربية بدمشق. وأود أن أشير بهذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المناسبة إلى أن مكتبة الأسد الوطنية هي إحدى مؤسسات البحث العلمي في سورية، وهي ترحب بكثير من الوافدين إليها من الأقطار العربية، للاطلاع على ما فيها من ذخائر المخطوطات والمراجع. كما تقوم إحدى الدوائر الفنية فيها بتقديم نسخ مصورة من مخطوطات للباحثين الجامعيين، بعد دفع أجور رمزية والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net